

الفصل الثاني عشر

الرجال الجوف (١)

إن الإشارات الأخيرة في قصيدة « الأرض الخراب » لتدعى المجتمع الحاضر تربطنا « بالرجال الجوف » الذين يكوون في مجموعهم هذا المجتمع . وتبين لنا هذه القصيدة أقصى ما وصل إليه إليوت من يأس ، فرجال العصر الحاضر في نظره ما هم إلا تماثيل مليئة بالقش ، إذ يقول :

« نحن الرجال الجوف

حشينا بالقش

نميل معاً

وقد امتلأت رؤوسنا بالقش . وأسفاه !

إن أصواتنا الجافة

حينما نتهامس معاً

هادئة لا معنى لها

كالرياح في الحشائش الجافة

أو وقع أقدام الجرذان على الزجاج المحطم

في خزانتنا الجافة

مظهر بلا شكل ، ظل بلا لون ،

قوة مشلولة ، إيماءة بلا حركة » (٢) .

في هذه القصيدة يعود إليوت إلى دراما النفس أو الدراما الداخلية للنفس

“ The Hollow Men ”

(١)

“ We are the hollow men

(٢)

We are the stuffed men

البشرية ، فنستمع في هذه الأبيات إلى صوت أحد الرجال الجوف في مناورج داخلي ، وهو في مناجاته لنفسه إنما يعبر عن مشاعره بقدر ما هو لسان حال الجماعة كلها التي ينتمى إليها . إن الرؤوس المليئة بالقش لا بد وأن تخرج أصواتاً جافة كما تدور بداخلها « أفكار » لا معنى لها . إن هذا الرجل الأجوف يتذكر القدامى الذين قابلوا الموت بشجاعة ، فيقول في انزوائه :

« أولئك الذين رحلوا

إلى مملكة الموت الأخرى ، وهم شاخصين أبصارهم :

عليهم ألا يذكرنا — إن شاءوا —

كأرواح قوية ضائعة

بل يذكرنا كالرجال الجوف

الذين حشوا بالقش » .

أولئك الذين عبروا الطريق وجازوا مسكرة الموت بثبات وإيمان وشجاعة وهم شاخصين أبصارهم إلى عالم الآخرة ، لهم منا كل تقدير واحترام . وكل

Leaning together

Headpiece filled with straw. Alas !

Our dried voices, when

We whisper together

Are quiet and meaningless

As wind in dry grass

Or rats' feet over broken glass

In our 'dry cellar

Shape without form, shade without colour,

Paralysed force, gesture without motion."

Ibid., "The Hollow Men," p. 87.

"Those who have crossed

With direct eyes, to death's other Kingdom

Remember us — if at all — not as lost

Violent souls, but only

As the hollow men

The stuffed men."

Ibid.

ما نرجوه منهم أن يذكرونا لا كأرواح قوية قد ثبتت أقدامها في العالم الآخر ،
فهذا مطلب عسير المنال يصعب علينا كرجال جوف أن نحققه ، بل أن
يذكرونا بمخالتنا الراهنة وقد شلت حركتنا وأصبحت حياتنا كالظل الذي لا طعم
ولا لون له .

إن الذين جازوا الطريق بسلام وجدوا

« هنالك العيون

وهي تضيء على العمود المهشم

هنالك تجد الشجرة وهي تمايل

وتسمع الأصوات

التي اختلطت بغناء الريح

وهي أبعد مكاناً وأشد رهبة

من النجم الخافق » (١) .

والعيون هنا كناية عن الحقيقة الخالدة في العالم العلوي . أما العمود المهشم
فهو يشير إلى تداعي العالم الحاضر الذي تضيء عليه أحياناً الحقيقة الخالدة .
ويتبين من وراء هذا الشعاع بين الفينة والفينة صفوة القوم الذين أمكنهم طرح
ظلمة الجسد خارجاً فتألق الروح ، ومن ثم تقرب أرواحهم من الحقيقة
وتكشفت لهم أسرارها وخباياها . أما الشجرة التي تمايل فترمز إلى شجرة الخير
والشر فقد تمايلت حين قطف آدم ثمرة من ثمارها . والأصوات المختلطة بغناء
الريح هي أصوات الأنبياء والمصوفة حينما تختلط بالأناشيد الملائكية العذبة .

“There, the eyes are
Sunlight on a broken column
There, is a tree swinging
And voices are
In the wind's singing
More distant and more solemn
Than a fading star.”
Ibid., pp. 87-88.

ذلك هو العالم العلوى بساكنيه من الأرواح الطاهرة النقية ، وبحقائقه الخالدة . أما عالمنا الأرضى فيتمثل فى

« هذه الأرض الميتة

أرض الصبار

حيث تنصب الأوثان

وحيث نتلقى

الضراعة من أكف الموتى

تحت لألأة نجم خافت » .^(١)

هذه هى « الأرض الخراب » بعينها ، أرض الأموات والصبار وقد خلت من أى مظهر من مظاهر الحياة ، تقام الأصنام فى كل ركن من أركانها ، فيضرع لها « الرجال الجوف » . وهذه الأصنام رمز لعبادة المال أو الشهوة أو الجاه . إن نجم هذه العبادات كلها آخذ فى الأفول لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً .

وفى هذه الأرض أيضاً

« لا توجد العيون

العيون لا وجود لها هنا

فى وادى النجوم الخالية

فى هذا الوادى الأجوف

فى هذا الفك المهشم لمالكنا الضالة » .^(٢)

"This is the dead land
This is cactus land
Here the stone images
Are raised, here they receive
The supplication of a dead man's hand
Under the wrinkle of a fading star."

Ibid., p. 88.

"The eyes are not here

(١)

(٢)

فعمرون « الحقيقة » التي ننفذ إليها ببصيرتنا العميقة لا وجود لها بين ضلال هذا العالم . إن « الفك المهشم » كناية عن الحطام والدمار والخراب الذي أصاب العالم عقب الحروب والمنازعات ، فتحول بين عشية وضحاها إلى وادى أجوف ، تتردد فيه الأصوات ، وتنحسر فيه النجوم عن مدارها الطبيعي . وفي وسط هذا الحطام يحاول « الرجل الأجوف » جاهداً أن ينفذ إلى « الحقيقة » فيتعثر في صلاته :

« بين الفكرة

والحقيقة

وبين الحركة

والحدث

يسقط الظل

لأن لك الملك

وبين التصور

والخلق

وبين الانفعال

والاستجابة

يسقط الظل

ما أطول هذه الحياة

وبين الرغبة

والنشوة

There are no eyes here

In this valley of dying stars

In this hollow valley

This broken jaw of our lost kingdoms."

Ibid., p. 89.

وبين النفوذ
والوجود
وبين الجوهر
والحلول
يسقط الظل

لأن لك الملك، (١)

ويرمز هذا الظل إلى الأجسام المادية التي تقف حائلاً بين هذا الرجل
الأجوف ، وبين رغبته في معرفة أسرار العالم الآخر ، إذ يقع هذا الظل بين
الجوهر والحلول ، وبين الفكرة والحقيقة ، وبين التصور والخلق ، والانفعال
والاستجابة له .

إن بحث إيلوت حول هذه القضايا الفلسفية التي تتصل بالجوهر الكلي والحلول
كصورة مرئية من صوره العديدة ثم الحركة والقوة الدافعة إلى أن نصل إلى

"Between the idea
And the reality
Between the motion
And the act
Falls the Shadow

For Thine is the Kingdom

Between the conception
And the creation
Between the emotion
And the response
Falls the Shadow

Life is very long

Between the desire
And the spasm
Between the potency
And the existence
Between the essence

And the descent
Falls the Shadow

For Thine is the Kingdom."

ما أطلق عليه أرسطو اسم « المحرك الأول » . ثم الأشكال والأعراض المختلفة التي تعطينا المظهر الخارجى للـب الأشياء وكنهها . وكيف أن هذا الجوهر متكامل فى حد ذاته ، أما الأعراض الخارجية فهى دائمة التغير والتقلب ؛ هذا الجرى وراء هذه الحقائق الفلسفية هو الذى يفسر لنا إقدام إيوت على كتابة القصيدة التالية .